Journal of Alasmarya University
Volume 2, December 2003

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الثاني، ديسمبر 2003

التطرف الديني في ضوء التحليل الفلسفي والسيكولوجي

الدكتور صلاح الجابري

الجامعة الأسمرية

تمهيد

لا يخص التطرفُ الدينَ وحده، وإنما يشمل قطاعات واسعة من الفكر، وفي مقدمتها الفكرالعلماني والأيديولوجيات المرتبطة به، فقد تجد العديد من المنتمين إلى آيديولوجيات علمانية أشدَّ تطرفا من الذين ينتمون إلى الآيديولوجيات الدينية، لكن السبب في تركيزالأضواء على الفكر الديني هو قوة وسائل الإعلام المرتبطة بالمؤسسات المناهضة للدين. ولو قمنا بإحصائية لعدد الآيديولوجيات التي كانت متطرفة ليس في فكرها فحسب، بل في استخدام العنف أيضا، لوجدنا أنها تزيد بكثير على التطرف الديني،فمن النازية، إلى الجيش الأحمر، إلى الجيش الأيرلندي السري، إلى المنظمات الإرهابية الأخرى التي برزت أثناء الحربين العالميتين الأولى

والثانيـة[1]، إلى إرهـاب الدولـة المـنظم الـذي تمارسـه الصـهيونية علـى الفلسـطينيين، وذلك الذي تستخدمه الدول ضد مواطنيها في العديد من بلدان العالم الثالث ـ نجد هناك سلسلة طويلة مليئة بالدموية والمأساوية من التطرف في الفكر، والعنف والقمع

مارسها الفكر اللاديني على الإنسانية، بل إن ضحايا الآيديولوجيتين الاشتراكية ـ الشيوعية، والرأسمالية بلغت، منذ ظهورهما على الأرض، أضعافا مضاعفة لما ارتكبته أشد الحركات الدينية تطرفا في العالم.

فقد استمرت الحرب العالمية الأولى 1565 يوما، وبلغ عدد الذين قتلوا فيها في ميادين الحرب، أكثر من تسعة ملايين نفرا، وعدد الجرحى كان في حدود عشرين مليونا، وعدد المفقودين فيها أكثر من خمسة ملايين. وقد خمنوا مصاريف هذه الحرب بأربعمائة مليون دولارا، ووفقا لمحاسبة (مؤسسة الأوقاف للسلام العالمي لدايل كارنيجي) كان من الممكن أن يبنى، بهذه المبالغ، لكل أسر بريطانيا وأيرلندا واسكتلندا وأمريكا وروسيا وألمانيا وكندا وأستراليا وبلجيكا دورا محترمة، مع تجهيزها بما يكفيها من أثاث المنزل!.

وقبل أن تنسى مآسي الحرب الأولى، كشَّرت الحرب العالمية الثانية عن أنيابها القبيحة، وكشفت النقاب عن وجهها الكالح الموحش! وفي فترة قليلة، لوَّثت العالم

(1) انظر مادة terrorism في : Encyclopedia Britannica نسخة مضغوطة على قرص مرن، 2001.

بنيرانها ودمائها، وفَقَدَ العالم في هذه الحرب، خمسا وثلاثين مليون قتيل، وعشرين مليون معوَّق، وأصيبت الأسر البشرية باثنتي عشرة مليون حالة إسقاط، وتهدَّمت ثلاثة عشر مليون مدرسة ابتدائية وثانوية، وستة آلاف مختبر علمي، وانفجر ثلاثمائة وتسعون مليارا من القذائف والقنابل في الفضاء!.

وفي سنة 1945 قصف الأمريكيون مدينتي هيروشيما وناكازاكي اليابانيتين، بقنبلتين ذريتين صغيرتين، قُتل في هيروشيما وحدها، سبعون ألف إنسان خلال دقائق معدودة وجرح سبعون ألفا آخرون. وفي مدينة ناكازاكي قتل أربعون ألف نفر وجرح بقدرهم، وكل واحدة من القنبلتين المذكورتين كانت تحتوي على 235 وحدة يورانيوم، و223 وحدة بلوتونيوم، و335 ألف من المواد شديدة التفجير TNT. مع العلم بأن القنبلة الذرية العادية اليوم أقوى من القنبلة التي أسقطت على هيروشيما بخمسة آلاف مرة! والقنبلة الهيدروجينية أقوى من القنبلة الذرية بخمسة ملايين مرة! (وهذه تقديرات قديمة في حدود السبعينيات من القرن العشرين)، وإن قنبلة ذرية واحدة عادية تكفي لتجعل مدن نيويورك وباريس ولندن وموسكو متساوية مع التراب[1].

وقد كتب أحد الأعضاء السابقين في لجنة في الجيش الأمريكي باسم (نيومان) يقول بشأن الحرب الآتية: لا تختص خسائر الحرب القادمة بالجنود المحاربين، بل لا تنتهي تلك الحرب إلا بانتهاء جميع الأمم والشعوب، بضمنها النساء والأطفال، ذلك أن عقول علماء التكنولوجيا والفيزياء قد وضعت تكاليف الحروب عن كاهل الإنسان، وفوضتها إلى الآلات الحربية والتراكيب والتشكيلات الفيزياوية، ولا تفرِّق هذه الأسلحة الحربية بين الأفراد المحاربين وغيرهم.

وتقول النظرية الغربية الحديثة في الحرب بأن ميدان القتال ليس هو ذلك الذي يتقابل فيه الجنود وجها لوجه، بل إن المدن والقرى ميادين أخرى للقتال: ليست القوة الأصلية للعدو في جيوشه، بل في مدنه العامرة وأسواقه التجارية ومصانعه ومعامله. فإذا حصلت الحرب فلابد أن تُقصَف هذه الأماكن، بالقوة الجوية وبالقنابل المتطورة الحاملة للمواد المتفجِّرة، والغازات السامة والميكروبات المولِّدة للجراثيم[2] هذا طبقته

(1) اللاري، مجتبى الموسوي، الإسلام والحضارة الغربية، تعريب محمد هادي اليوسفي الغروي، مطبعة الهادي، قم، 1411هـ ق، ص67 -68.
(2) عن المصدر نفسه، ص68.

أميركا تماما في حرب الخليج الثانية مع العراق. أليس في كل ذلك مثال واضح، على الإرهاب الدولي المنظَّم، على الرغم من أننا لم نذكر سوى لقطات بسيطة من مآسي الحروب، وجرائمها المبتكرة!! أيقال بعد كل ذلك وغيره مما لم نذكره ولا نعرف بأسراره: إن الإسلام مصدر للإرهاب؟!

فضلا عن أننا لم نجد أي نظرية، تعالج مسألة امتهان الإنسانية واضطهادها، نجحت في أي من الآيديولوجيات العلمانية التي برزت قديما وحديثا، بل نجد زيادة طرديّة في امتهان الإنسانية، وتفاقم عذاباتها كلما ازدادت ثروات الرأسمالية، واشتد التنافس الاقتصادي. وكان الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل قد رأى من قبل أن المسابقات الشائعة اليوم في الإنتاج الاقتصادي هي أحد عوامل انعدام المجتمع البشري في المستقبل الآتي.

ومن بين أكثر الأديان التي تم تقرير الاتهام ضدها، هو الدين الإسلامي والحركات المرتبطة به، وتقرير الاتهام يتبع قوة المتهم (بكسر الهاء)، وقدرته على توجيه الأذهان نحو تشديد ذلك التقرير، ولفت الأنظار إليه بشتى الوسائل، من الإعلام المرئي والمسموع، إلى الإعلام الإلكتروني الحديث، ليس لأن التطرف الإسلامي هو الأخطر، وإنما هو الذريعة الموصلة إلى تحقيق أهداف ومصالح استراتيجية هائلة، لا يمكن للدول الاستعمارية الاستغناء عنها أو استبدالها.

إن تميُّز التطرف أو (الإرهاب) الإسلامي في ذهن الغرب، ليس وليد اللحظة، سواء كانت هذه اللحظة هي لحظة (11 سبتمر) أو لحظات الانتفاضة الفلسطينية، أو أي لحظة أخرى من لحظات زماننا الراهن، بل هي تمتد إلى اللحظة الأولى لبزوغ نور الإسلام على الأرض. من لحظة معارضة أبي لهب وأبي سفيان ويهود المدينة ونصارى دمشق والدولة البيزنطية، امتدادا إلى مواقف كنائس روما، والعصور الوسطى، والمؤسسات الاستشراقية في العصر الحديث. حيث وصفت تلك المؤسسات، عبر تاريخها المتواتر، الإسلام بأنه دين حرب، وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو رجل حرب. وتمركزت الثقافة الأوربية، فيما يتعلق بالإسلام، حول هذه الصورة المرسومة للإسلام بشكل خاص، وعن الشرق الذي ظهر فيه بشكل عام. هكذا تناست أوربا تاريخها الحربي والدموي لتصف الإسلام بأشد الأوصاف التصاقا بها، فلا ضحايا حروب الإسلام كانت أربي من ضحايا حروبهم، ولا تدميرها للثروات كان معادلا لتدمير قنابلهم وصواريخهم.

لكنَّ هذه الصورة الواقعية، لعلاقة الغرب بالإسلام، لا تبرِّر التطرُّف الذي نلحظه عند بعض المسلمين، أو لدى بعض الحركات الإسلامية، ولا تعفي من معالجة الخلل المسبِّب لهذا التطرف، وتعيين الأسباب الحقيقية له، ومعالجتها بروح موضوعية. ويجدر بنا أن نلفت الانتباه على أنه لا يوجد في الواقع ما يُسمى بالتطرُّف الإسلامي، ولا الإرهاب الإسلامي، وإنما هناك تطرف عند بعض المسلمين، أو بعض الحركات الإسلامية.

والقول بالتطرّف الإسلامي يستلزم، في معناه، تبريرا له، أو الإيحاء بأنه جزء لا يتجزأ من المنظومة الفكرية والعقائدية للإسلام، لينتج عن ذلك أنّ كلَّ مسلم هو متطرف، وهو ما تتداوله الوسائل الإعلامية في الغرب وأمريكا تحديدا، بشكل مباشر أو غير مباشر. وهذا مناف للواقع تماما، ويتعارض مع النصوص الأصولية المقررة للعقيدة الإسلامية، فضلا عن كونه اتهاما عقائديا مثقلا بأبعاده النفسية، والعدوانية التي تعود إلى الأيام الأولى لكنيسة روما، وهذا ما يفقده موضوعيته.

والذي يفسر لنا شراسة الموقف الأمريكي والغربي، اليوم، من الإسلام هو حضور تلك الفكرة في أذهانهم، والتي مثَّل حدث (11 سبتمر) التجربة الحاسمة التي أثبتت تلك الفكرة، وعزَّزت ذلك الموقف المرسوم مسبقا.

الصورة الواقعية للإسلام

يتفق المسلمون، على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم، على أن الإسلام دين تسامح ومحبة وحكمة، فهو دين ينبذ السلوك الإجرامي المنحرف، ذلك لأنه لا يحرِّم الاعتداء على الآخرين فحسب، وإنما حرَّم اعتداء الإنسان على ذاته بأي شكل من أشكال الاعتداء، فهو إذن حرَّم قتل النفس إلا بالحق، والمقصود هنا بالحق، هو الدفاع عن النفس، أو عن العرض، أو عن المِلْكيَّة المشروعة، ولم يسمح قط بقتل النفس من أجل مصالح استراتيجية، أو تكالبا على المادة، أو غيرها من المصالح الذاتية، أو الاجتماعية المرتبطة بدوافع غير مسوَّغة من منطلق منظومته القيمية. فضلا عن أنه منع الانتحار وربطه بالعمل الإجرامي.

هو دين يؤمن بالعقل كما صرح القرآن الكريم: ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (سورة آل عمران/164). ويؤمن بحرية الرأي: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (سورة العنكبوت/64). والمشاركة بالقرار السياسي: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (سورة الشورى/38). ويؤمن بالتسامح:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (سورة آل عمران/159).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (سورة آل عمران/20).

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أنما عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (سورة المائدة/92).

وقوله تعالى: ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ (سورة المائدة/99).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (سورة النحل/35).

وقوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ (سورة الكهف/6).

وقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إنما أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (سورةالغاشية/21).

فهل نرى، في هذه الآيات، شيئاً من القمع أو ظِلالاً من العنف، في مخاطبة الكافرين والمشركين، وهم يتربّصون الفرص للانقضاض على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟. لا نلمس شيئاً من هذا ولا ذاك. وفي سيرة الرسول الكريم وأقواله، نستطيع تلمس الكثير من الشواهد حول لينه وعفوه ورحمته اتجاه الآخرين: (ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة؟ العفو عمن ظلمك، ووصل من قطعك، والإحسان إلى من أساء إليك، والعطاء لمن حرمك)[1] .

وقوله هذا تأكيد على التعايش مع الناس في ود ورحمة. لقد جسد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القدوة في العفو والرحمة، وكان المثال والنموذج في الرفق والرأفة والعطف، كما كان في سائر المحاسن الأخلاقية، فكان يعفو عن الناس ويأمر بالعفو، ويرحمهم ويأمر بالرحمة، وكان يقول صلى الله عليه وسلم .: (مروءتنا أهل البيت العفو عمّن ظلمنا وإعطاء من حرمنا)[2].

(1) المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1404هـ، ج71، ص329.
(2) الحراني، الحسن بن شعبة، تحف العقول، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ص33.

ولم تكن تلك الرحمة تنطلق من الحب والبغض الشخصي في رحمته وعفوه للناس وإنما انطلاقاً من مبادئه، ومن قيم الرسالة التي كان يؤمن بها ويدعو إليها، فرحمته وعفوه كان في سبيل الله عز وجل.. وتحدثنا كتب التاريخ والسير عن ذلك فتقول: (ما ضرب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مملوكاً قط ولا غيره إلا في سبيل الله، ولا انتصر قط لنفسه إلا أن يقيم حداً من حدود الله)[1].

ويقول عنه أمير المؤمنين علي : (ما انتصر رسول الله لنفسه من مظلمة حتى تنتهك محارم الله فيكون حينئذ غضبه لله تبارك وتعالى)[2].

وفي يوم فتح مكة رغم العذاب والعنت الذي لاقاه وأصحابه من أهلها إلا أنه صلى الله عليه وسلم ـ عفا عنهم.. وقد قال لأهلها: (ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا أخ كريم وابن أخ كريم.. فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين.. فاذهبوا فأنتم الطلقاء)[3].

وذات مرة كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عائداً من غزوة ذات الرقاع فانسل رجل من الأعداء في غفلة من المسلمين حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بالسيف وقال: ما يمنعك مني؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو مطمئن (الله) فمالت قدم الرجل فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: والآن من يمنعك مني؟

فقال الرجل: كن خير آخذ، فخلّى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبيله، فأتى الرجل أهله وقال: جئتكم من عند خير الناس[4].

يؤمن الإسلام بالتفكير العقلي والمنطقي: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (سورة آل عمران/91)، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (سورة فصلت/53)، ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَت. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَت. ﴾ (سورة الغاشية/17 ـ 20).

(1) تنبيه الخواطر، ج2، ص26.
(2) الطبرسي، الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، دار الشريف الرضي، ص22.
(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج2، ص158.
(4) المصدر نفسه، ج2، 335.

وقد امتدح القرآن الكريم الاستدلال العقلي الذي مارسه إبراهيم عليه السلام، والذي انتقل فيه من المتغير والمفتقر والمتعلق، إلى الواجب والكامل والمطلق، أي الذي انتقل فيه من المعلول (العالم)، إلى العلة الأولى والواجب المطلق (الله تعالى)، وامتدح أصحاب الاستنباط العقلي، وأولو العلم والحكمة وأولو الألباب، وبالمقابل وبّخ الذين لم ينتفعوا بعقولهم وملكاتهم الأخرى، فقال فيهم: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (سورة الأعراف/179)، وعقّب في نهاية الآية الشريفة نفسها، بأن هؤلاء كالأنعام، بل أدنى من الأنعام، إذ قال: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلّ ﴾.

وقد صرح بهذا الدور البارز للعقل في الإسلام، أوجست كونت، رائد المدرسة الوضعية، إذ يقول: (لم يصادر الإسلام العقل، وإنما أعطى له قدرة على التحرر والتفكير والتبصر، والقدرة على الإبداع الفني والجمالي والعمراني، ولا يمكن لدين أن يفعل هذا إلا إذا كان ديناً، يستحق أن يُدرس بعمق)[1].

إن المنهج الذي سار عليه الأنبياء، والرسل في سبيل نشر مشروعهم الإلهي، والدعوة إلى تعاليمه وشرائعه، هو منهج قائم على اللين والمودة والتسامح وحرية العقل والتفكير، ولم نقرأ في جميع آيات القرآن عن نبي، أو رسول رفع سلاح القمع ضد مناوئيه، وهذه نكتة يجب الالتفات إليها وتأملها مليا، فعلى الرغم من أن الرسول متأكد من صدق دعوته مع ذاته، وأنه مؤيد بالأمر الإلهي، لكنه، مع ذلك، لم يستخدم أسلوب العنف والتطرُّف في طرح مشروعه، وإنما كان مثال اللين والرحمة واحترام الرأي الآخر وسماعه، والرد عليه بالأدلة الملزمة.

إننا نجد المسلمين اليوم يختلفون في مسائل جدلية، اختلافا تمليه ظروف مختلفة ومتنوعة، لكن بعضا منهم يطرحون مشاريعهم وفهمهم لها، كأنها الحق المطلق، ويتطرفون في استخدام شتى الوسائل لتحقيق أهدافهم، وهو عين التطرّف الذي يولّد الإرهاب، فضلا عن كونه قلب للمعايير الأخلاقية للإسلام، فبينما نجد تلك المعايير تؤكد ضرورة الالتزام بخصائص اللين والرحمة، وتضفى على الوسائل معاني السماء، نجد التطرّف يجعل من الغايات والأهداف مبررا للوسيلة، فتُطلق الوسيلة من تقييداتها الأخلاقية، فتنحرف التعاليم عن مستواها الروحي والإلهي إلى مستوى البهيمية والهمجية؛ تمهيدا لما يأملون تحقيقه، والذي قد لا يتحقق أبدا في ظل تلك المبادئ الغريبة عن الروح الواقعية للإسلام.

(1) يوسف، د. محمد، حرية الرأي في الإسلام ص23.

المسلمون بين التقليد والوعي العلمي

إني لأجد التطرف تجاه الآخر (الخارجي) منبثقا عن التأزُّم الداخلي، فالعالم الإسلامي يعيش اليوم أزمة ثقافية بسبب الانكفاء على الذات وغياب التجديد، والإحساس بالدونية تجاه الآخر المتقدِّم، مما دعا إلى بثِّ روح التعصُّب والتحيُّز الذي أفرغ الساحة الثقافية من الأسلوب العلمي، الأمثل في معالجة الوقائع الراهنة، وسَببُ ذلك هو التأزُّم الداخلي في العلاقة بين المسلم، والمسلم الآخر غير المحكومة بالتبصر والعقلانية، بل المحكومة بنزعة سلبية نابذة، وقد انعكست هذه العلاقة السلبية وهذا التأزُّم في علاقته، أي المسلم، بالآخر (الخارجي). فالتطرُّف الإسلامي الخارجي ينبثق من تطرف داخلي، مارسه المسلم على أخيه المسلم بسبب خلل تربوي غفلت الأمة (أو تغافلت) عن إصلاحه.

لقد تحول الانقسام والتفرُّق والتعصُّب، الذي عاشه المسلمون في الداخل إلى منهج تربوي تتعاقب عليه الأجيال، وقد غفل الأوائل والمتأخرون عن مسألة علاجه حتى استحكم في النفوس، فربطها بحتمية قاهرة، حتمية المحيط والمجتمع والتاريخ. فيخرج المسلم إلى الوجود، وهو لا يمتلك ذاته، بل هو مستلب تجاه المحيط والتاريخ، وضحية بريئة لأحداث لم يسهم في صنعها، بل وجد نفسه مجبرا على التحزُّب لأحد أطرافها، وهو يحمل في داخله تساؤلات عدة يجبره اللاشعور الثقافي (السلبي) على كبتها وقمعها، وكلما حاولت تلك الأسئلة تحرير ذاتها من تلك القيود الوهمية، وُجهت بمقاومة شديدة؛ لأن الإنسان مازال على وضعه القديم في سلبيته واستلابه، بل تزداد الهوة الداخلية بدوران الزمن.

ولا أقول (تقدم الزمن)؛ بل أقول (دورانه)، لأن الزمن لا يمكن حسابه خارج مضمونه، فهو من دون تقدُّم المحتوى لا يمكن أن يتقدم، فالزمن يتشخص من خلال مضمونه، ويتقدم بحركة ذلك المضمون، ويفقد قيمته عند تجريده من مضمونه، أو عندما يتوقف مضمونه عن التقدم؛ ولذلك فهو يدور بمضمون لا يمتد، وعندما يُجبَر على الحركة، بحكم حركة الطبيعة، يدور على نفسه، فيتعزز الانقسام ويزداد التباعد.

وذلك كله أوقع الأمة في خلل تربوي، على مستوى المنهج، أفضى بدوره إلى نظرة أحادية الجانب، منغلقة على ذاتها كالدائرة، منفصلة عن كل مختلِف ومستبعدة

لـه، فتتشـكل العلاقـة بـين المختلِفَـيْن بشـكل دائـرتين منفصـلتين، متباعـدتين لا تشـتركان بشـيء، أو هكـذا يصـفهما الـوعي المسـتلب لصـالح جبريـة المحـيط والتاريخ، فتنكفئ الذات، ويحل التقليد محل الإبداع.

إن هذا الخضوع المطلق لجبرية المحيط، والتاريخ يفوّت على الإنسان فرصة الوعي بالتاريخ والمحيط معا، الوعي الذي يمهّد إلى تجاوز الركود الفكري، وخلق حركة متقدمة بشكل طردي.

المخرج الوحيد من هذا الانغلاق هو تغيير الواقع الإسلامي نفسه، بإصلاح ذلك الخلل التربوي، والوعي بما كان يجب وعيه، وتقدير مخاطره مسبقا. على هذا الواقع إذن، أن يتغيّر من أسلوب التطرف في العلاقة مع المختلف الداخلي إلى الاعتدال، وذلك بتوسيع القاعدة الفكرية في الذهن من أجل أن تستوعب سلسلة الإمكانات والاحتمالات التي يفترضها الواقع، وذلك كله مرهون بإصلاح ذلك الخلل التربوي الذي غفلت مناهجنا الإسلامية عن إصلاحه، بل أقول تعمَّد الكثير من اتجاهاتها، إثباته وتعزيزه، في غفلة عن مخاطره المستقبلية؛ ذلك لأن العديد من تلك الاتجاهات لا تمييز لديها بين اختلاف وجهات النظر، والكفر والإلحاد.

ومن أهم صفات الوعي العلمي استيعاب سلسلة الإمكانات والاحتمالات، فمن دون هذا الاستيعاب لكل ما هو محتمل وممكن، لا يمكن للمرء أن يفحص ما يعتقده، ويتأكد من وثوقيته؛ لأن التأكد من صحة الاعتقاد والمعرفة، يعتمد على العلاقة الواقعية بين الاعتقاد الذي عليه المرء، وسلسلة الإمكانات أو الاحتمالات الأخرى.

فإذا استبعد الإنسان الاحتمالات الأخرى بشكل مسبق، فلا يمكن أن يتأكد من مستوى صحة اعتقاده بصورة واقعية قطعية؛ لذلك يجد الإنسان المسلم، المبتلى بذلك الخلل التاريخي، في الإصرار والتقليد والانغلاق، بديلا لتسويغ اعتقاده، ومن هنا تتفشّى اللاعقلانية، والنزعات المتطرِّفة، وإذا أراد المسلم أن يخرج من تقوقعه وسلبيته الثقافية والتاريخية، فعليه أن يعيد بناء ثقافته، وفقا لعلاقتها بالإمكانات الواقعية الأخرى.

رفض التقليد

يرفض الإسلام أسلوب التقليد، تقليد الآباء والأجداد والأسلاف من دون وعي، أو تقييم عقلاني للتاريخ وظروف المجتمع وحساب الزمن، وطبيعة المشكلات وتجدد المفاهيم والسياقات، وطرح بدلا من ذلك منهجا عقليا، يعي فيه الإنسان التاريخ

والمجتمع، ويستنطقهما تمهيدا لتجاوزهما إلى صور أرقى في سلم التكامل البشري، فعاد التقليد، في ضوء المنهج الإسلامي العقلاني، مضادا لحركة التاريخ والتطور النوعي والجوهري للحياة الإنسانية، التي أرادها الله أن تكون متدرجة إلى أعلى درجات الرقي الروحي؛ ليقترب المجتمع من الكمال الاجتماعي، والإنسان من الكمال الأخلاقي، وهذا هو معنى التخلق بأخلاق الله.

والعبادة منهج وطريقٌ للسير نحو الاقتراب من ذلك الكمال، فالصلاة تطهير من الأرجاس، والزكاة تزكية للنفس، والحج إتمام للإخلاص. فالعبادة بمجملها تهذيب للنفوس، وجعلها أكثر شفافية وسعة، وتقبلا للآخرين، مهما كان دينهم وطائفتهم ومذهبهم، فالمؤمن وفق هذا المنهج إنسان يتمتع بشفافية الروح و لطافة الأسلوب وسعة الصدر ورقة الطبع، إنسان حليم صبور، ذو شخصية سوية مؤثرة نافذة إلى القلوب.

إذا كان هذا كله في الإسلام، فمن أين ينشأ التطرف الذي يحتوي نقائض تلك الصفات المذكورة؟، من أين ينبع ضيق الصدر والحقد، والتزمت في الرأي، وتكلّس العقل، ورفض الآخر ورميه بشتى التهم والافتراءات؟.

التطرف وعي سلبي تماما، يعتمد أسلوب الإقصاء والإنكار لكل ما هو مختلف أو مخالف، والأخطر في الأمر أن هذا الإبعاد والإقصاء غير محدد في إطار التباين الفكري في وجهات النظر، كما يحدث في المجالات المعرفية الأخرى، وإنما هو إقصاء سلبي أيضا، يحمل في بعده الديني طابعا تكفيريا، يجيز لأصحابه سفك دماء الآخرين الذين يختلفون معهم في الرأي، وإن كانوا يحملون مثلهم الإطار العقائدي الأصولي نفسه.

والحقيقة أن العقليات التي تحمل هذا الأسلوب في الحياة، هي أخطر أنواع العقليات على المجتمع أولا، وعلى الإسلام نفسه، عقيدةً ورؤية كونية. فكان تغييب العقل وسيادة التطرف ووليده الإرهاب (أكبر نكبة ابتلي بها الإسلام في تاريخه، وتاريخ من عملوا على جمود الفكر الديني تحت أي مسمى)[1]. وقد أدى ذلك إلى بروز العقلية البدائية، التي يصفها ليفي بريل كالآتي[2]:

(1) السعيد، رفعة، المتأسلمون، ص185.
(2) انظر: العظمة، عزيز، العنف الأصولي، مواجهات السيف والقلم، ص21.

- ❖ انفعالية (بمعنى أن البعد العاطفي المبالغ فيه سلباً أو إيجابا هو المسيطر).
- ❖ لا تسببية (بمعنى أنها تعطي للظواهر أسبابا خارجة عنها).
- ❖ لا عقلانية (بمعنى افتقاد صلة الوصل بين المعطيات والنتائج).

فيما يتعلق بالصفة الأولى، هي في رأينا، المهِّد لأسلوب التقليد، ذلك لأن التقليد يستند إلى الارتباط العاطفي بالمقلَّد في غياب الارتباط العقلاني.

أما الخاصية الثانية، فهي إلغاء لقوانين العالم المادي، وجعلها مجرد مظاهر مباشرة لفعل إلهي مباشر أو يد غيبية، تتصرف مباشرة بالظواهر والأحداث، ولا يوجد مجال للقول بقوانين موضوعية، تحافظ على التوازن الكوني. وقد أدى هذا إلى خلط بين البعد الابستمولوجي للمعرفة الذي يعتمد الصدق والكذب ودرجات الاحتمال المتوسطة بينهما، والبعد الديني - الفقهي الذي يعتمد ثنائية الإيمان والكفر، وتعميم الأخير بوصفه معيارا مطلقا أوحدا في تقويم الأفكار والنظريات في مستوياتها العلمية والإنسانية كافة ، مما يؤدي إلى عرقلة مسيرة المعرفة العلمية وإعاقة التقدم. فضلا عن ذلك، فإن إلغاء الأسباب الطبيعية قابل للاستغلال من قبل منحى أيديولوجي، عاجز عن تقديم المبررات الكافية لتصرفات أصحابه، فيمهد لعملية نسبتها إلى الجبرية، وإرجاء معاقبة مرتكب الجرائم بحق الإنسانية بإلغاء السببية الطبيعية.

والنقطة الثالثة نتيجة طبيعية للنقطة الثانية، فعدم التفكير وفق منطق الأسباب، والمسببات يؤدي حتما إلى غياب الوعي بالارتباطات الاستدلالية بين المقدمات والنتائج، فيبطل الدليل العقلي، ويتمركز أسلوب التقليد والحفظ عن السابقين، فتغيب ملكة الابتكار وتنشط الذاكرة.

إذن منشأ التطرف هو تغييب العقل، ويؤدي التطرف إلى إلغاء الاختلاف وتعزيز الاستبداد، وديكتاتورية الرأي الواحد، يتلوها عرض الإسلام بصورة تنسجم مع هذا اللون من الفكر الاستبدادي، وقد تفاقم التطرف من الناحية النفسية لينتهي إلى العدوانية فالإرهاب والعنف، وهي أسوأ الحالات التي يرتكس إليها الفرد المتطرف بوصفه شخصية عصابية، كما سوف نبين ذلك في سياق البحث.

الأساس الثقافي والتربوي

ينشأ التطرف بسبب عوامل مختلفة، سأناقش ما يتعلق بموضوعنا منها فحسب، وأحد تلك الأسباب هو طبيعة الثقافة والأسلوب التعليمي القائم على التقليد. حيث ينشأ الشباب في أجواء، يغيب عنها الجو العلمي، وتتمركز بدلا من ذلك دوغمائية

الارتباط بالسلف[1]، وهذه الدوغمائية تشمل المواقف الدينية، والمذهبية، والعادات الاجتماعية، وسلطة القبيلة، والتاريخ. ويقابل تمركز الدوغمائية غياب الوعي العالِم، ولذلك فإن السبيل إلى التحرر من الدوغمائية هو سيادة الوعي، فالذي يقابل قسرية الدين هو الوعي بالدين، والذي يقابل قسرية التاريخ والمجتمع هو الوعي بهما، وهكذا يقابل الوعي أحادية النظرة الدوغمائية دوما.

لكن ما هذا الوعي الذي نقصده؟ المشكلة هي أن كل شخص يدّعي، ومن حقه أن يدّعي، أنه واعٍ بما يؤمن ويفكر ويفعل. وهذا نقص آخر أطلق عليه علماء المنطق اسم (الجهل المركّب)[2]، وهو الموقف الذي يشعر به المرء بأنه على علم بما يفكر ويفعل، ويعتقد بعلمه ذاك، لكنه في الحقيقة يفكر ويعمل بجهل كامل، ومن هنا، فهو يجهل ويجهل أنه يجهل، وهذا هو عدم الوعي بالجهل، الذي يتطابق مع موقف المتطرف الذي يثبت عند مواقف وتفسيرات محددة، لا يبرحها اعتقادا منه بصواب رأيه وعلمه، في حين أن تلك التفسيرات لا تتطابق مع الواقع.

وهناك حديث حول تقسيم العلم إلى ثلاث مراحل، ومضمون هذا الحديث، أن العلم ثلاثة أشبار: حين يصل الإنسان إلى الشبر الأول من العلم، يصيبه الغرور والتكبر، وحين يصل إلى الشبر الثاني يصبح متواضعا، حيث يرى أن معلوماته ضئيلة جدا تجاه المجهولات، وحين يصل إلى الشبر الثالث، يعلم أنه لا يعلم أي شيء، ويقول: قد اتضح لي، أنني لا أعلم شيئا[3].

---

(1) يجدر التنبيه على الفرق بين القول بدوغمائية السلف وهو قول بعض المتحاملين من المستشرقين وأتباعهم، وهذا القول غير مقبول من الناحية العلمية تماما، وقولنا الارتباط الدوغمائي بالسلف ففي هذا القول انتقاد وتنبيه موجه إلى الإنسان المسلم الحاضر بأن ارتباطه بالتاريخ يجب أن يكون واعيا وعقلانيا ومستوعبا للزمان والمكان والظروف المتداخلة. أما السلف المقصود هنا فهو مجموعة الأفكار والآراء والاجتهادات والشخصيات التي مثلت نشاطا ثقافيا لعصر بعينه تحتّمه ظروفه الخاصة التي قد لا تتماثل بكثير من تفصيلاتها مع عصرنا الراهن والمستقبل. وهذا ما يحركنا نحو بناء فكر وثقافة واجتهاد ينسجم مع عصرنا وظروفه الخاصة. والمقصود بـ (الدوغمائية) هنا هو التحجر الفكري الذي يجعل الإنسان يقلّد الآخرين ويعتنق أفكارهم وينقاد لها من دون وعي أو مناقشة علمية، على الرغم من الفاصل الزمني واختلاف الظروف والفارق الحضاري، وهو يشمل بعض ألوان تقليد المسلمين لماضيهم وتقليد بعضهم لمظاهر الحضارة الغربية المعاصرة.

(2) انظر: المظفر، محمد رضا، المنطق، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ص19 - 20.

(3) مطهري، مرتضى، مقالات إسلامية، دار الإرشاد الإسلامي، بيروت، ص58.

إن الصنف الأول هم أصحاب الجهل المركب، الذين لا يمكن أن يدخلوا مجال الثقافة العالِمة، وهم في هذا الحال، إما إفراز لوضع اجتماعي وتاريخي معين، وإما سقوط تدريجي في شراك المرض النفسي، الذي جلبه عليهم وضع سياسي أو اجتماعي أيضا، فتمكن منهم الغرور والشعور بالعظمة، ومنعهم من رؤية الواقع كما هو، فتخيلوا أنفسهم علماء وعظماء، وإما أنصاف متعلمين، يظنون أنهم بلغوا مرتبة الكمال العلمي والأخلاقي بسبب معرفتهم البسيطة بالدين وبعض مسائله الأخرى، فينصِّبون أنفسهم مفتين وقضاة من دون أن ينصِّبهم أحد، وهذا ما يجعل منهم أدوات سيئة توظِّف الدين في غير أهدافه ومقاصده.

وكل هؤلاء في الحقيقة، هم خارج مجال الوعي العلمي، وما هم إلا جهلة حقيقيون، هؤلاء ينفون جميع الأسباب المحتملة لتعليل الظواهر والمواقف، وينظرون إلى الواقع من زاوية نظرهم الخاصة من دون الوعي بحقيقة أن زاوية نظرهم هذه، ربما تكون خاطئة، ومن دون وعي بوجهات النظر الأخرى، والمنظورات الأخرى، التي قد تكون مخالفة لوجهات نظرهم، وأقرب منها إلى الحقيقة. مثل هؤلاء كمثل الذي ينظر إلى الكون من ثقب الباب، فيظن أن ما يراه من خلال هذا الثقب هو كل الوجود، ولا يوجد وراءه شيء حقيقي.

إذن، نحن لا نعني بالوعي (الادراك الساذج)، إنما نعني به الوعي العلمي، الذي يشترط في إثبات كل قضية سلسلة من الشروط، ولا يقبل أو يرفض إلا في ضوء سلسلة من الاحتمالات التي تترك فسحة موضوعية للرأي الآخر، فسحة للتصحيح واكتشاف الأخطاء. وهكذا يتم تقويم المواقف في ضوء الوعي العلمي، بأن يُقيِّم الموقف وفقا لجوانب متعددة، وبما أن الجوانب والسياقات قلَّما يتم حصرها في إطار محدد، لذلك فالتقويم بحكم طبيعته الترجيحية، سيترك فسحة لإعادة النظر.

والحقيقة أن العقلية المتطرفة لا تعمل وفقا لفلسفة الترجيح والاحتمال هذه، وإنما تعمل وفقا لثنائية اليقين والخطأ، والحق والباطل، والإيمان والكفر، في مواقف مختلفة وسياقات متنوعة. نحن لا ننكر أهمية ثنائية الحق والباطل والإيمان والكفر، لكننا ننكر نقلها إلى سياقات مخالفة لسياقاتها الخاصة، وإلى مواقف مخالفة تماما للقضايا التي من حقها البت فيها. على سبيل المثال، لا ننقل ثنائية الحق والباطل أو الإيمان والكفر إلى القضايا الجدلية، التي لا يمكن حصر ظروفها والعوامل المتحكمة فيها، وتغييب السياقات المختلفة التي يمكن أن تحتلها.

للأسف أن أغلب الشباب المتدينين والمتعلمنين أيضا، يعملون وفقا لتلك الثنائيات ملغين من أذهانهم فلسفة الترجيح والاحتمال، والسبب هو أنهم لا زالوا يعالجون الموضوعات المعقّدة، مثل الموضوعات الدينية والاجتماعية بالمنهجية ذاتها التي يعالجون بها الأشياء المرئية أمام ناظريهم في الحياة اليومية، وأعني بذلك منهجية الحس العام common sense. لكن الحقيقة أن معظم قضايا الواقع اليومي هي قضايا ترجيحية والقليل منها يقينية، وغالبا ما يكون الترجيح والاحتمال، من المنظور العلمي، الطريق الضروري إلى اليقين، كما يكون الشك، من المنظور الفلسفي، الطريق إلى اليقين أيضا.

دعوني أوضح فلسفة الترجيح والاحتمال بأمثلة أكثر دقة. أوضحت (نظرية كينز) في الاحتمال أن قوانين الواقع لا يمكن وصفها باليقين الجازم، من الوهلة الأولى. فوضع للوصف العلمي درجات بين الصفر والواحد (يشير الصفر إلى الاستحالة والواحد إلى اليقين). كما في الشكل الآتي[1]:

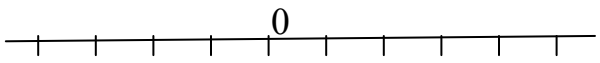

لكي تصل المعرفة إلى درجة اليقين المتمثلة بالواحد الصحيح، يجب أن يقطع التوكيد كل الدرجات الثبوتية الواقعة بين الصفر والواحد. لكن هذا لا يعني أن المعرفة التي تقع بين الصفر والواحد غير ذات قيمة، بل هي معرفة موضوعية وذات قيمة كبيرة، وهذا اللون من المعرفة شائع في المعرفة العلمية، وإن عملية بلوغ درجة اليقين قد لا تكون واردة في العلم الحديث، ولذلك يكتفي العلم بدرجة من الاحتمالية، حتى أن بعض العلماء عدّ الاحتمال حقيقة فيزيائية موضوعية، أي حتمية، لكن بعضهم يرى أنها مجرد إجراء مؤقت، تفرضه طبيعة الحقائق المدروسة[2]، من هنا منحت المعرفة قيمة احتمالية أو إحصائية.

(1)زيدان، محمود فهمي، الاستقراء والمنهج العلمي، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، 1966، ص123.

(2)انظر حول هذا الجدل في تفسير الاحتمالية: سالم يفوت، فلسفة العلم المعاصرة ومفهومها للواقع، بيروت، ط1 1986، ص194.

وسواء بقينا مع نظرية كينز في الاحتمالات، أو انتقلنا إلى نظرية برتراند رسل في درجات التصديق[1] (egrees of Credibility)، فإننا لا يهمنا الانتقادات والتصحيحات التي تناولت هذه النظريات، فما يهمنا هو كيف نستطيع أن نستفيد من حركية الفكر العلمي، والأبستمولوجيا المنبثقة عنها.

وتلك مسألة ترتبط بمعرفة دقيقة بنظرية الاحتمال، فاستنادا إلى منطق الاحتمال، فإن معرفة درجة احتمال صدق اعتقاد ما، قياسا إلى الاعتقادات الأخرى تعتمد على درجة قربه من الوقائع، بالنسبة إلى مجموع الاعتقادات الأخرى المشابهة له حول الموضوع نفسه. وهذا يشترط افتراض تساوي جميع الاعتقادات الأخرى في القيمة الاحتمالية مسبقا، وهكذا الأمر عندما تريد ترجيح اعتقادك بشيء ما، على جميع الاعتقادات الممكنة، فإنك مرتبط بالإمكانات الأخرى ولا يمكنك استبعادها مسبقا، وإنما يفرض عليك المنطق العقلاني أن تفترض تساوي قيمها بما فيها اعتقادك نفسه، فإنك لا تستطيع أن تفترض مسبقا أن الطبيعة والحياة ستمتثل لرأيك من دون الآراء والاعتقادات الأخرى الممكنة، بل يجب أن تفترض تساويها كلها مسبقا، ثم تترك للطبيعة والحياة أن تختار، بتعبير مجازي، ما ينسجم مع واقعها بضرورة حتمية، أو بتعبير صريح، أن يكتشف العقل انسجام الطبيعة والحياة مع أحد الاعتقادات وفقا لمعايير واقعية في الترجيح. وهكذا فالمنطق لا يعي الواقع مباشرة، بل يعيه بشكل إجمالي، وتتعين قيمة العلم التفصيلي عن طريق امتثال الطبيعة لإحدى القيم المنطقية للاحتمال، فإذا حدث أن تم اختيار رأيك بوصفه الواقع الحتمي، حينئذ فقط، يكون رأيك منسجما، ليس فقط مع المنطق العقلاني، بل مع الواقع أيضا.

ووفقا للاحتمال المنطقي، فإن العلاقة الاحتمالية ليست نسبة رياضية فحسب، وإنما هي علاقة بين قضيتين منطقيتين، فتكون قضية أكبر احتمالا من أخرى، قياسا إلى قضية ثالثة أخرى، تمثل الشروط الملائمة لترجيح إحدى القضيتين على الأخرى.

(1) Russell, B.,Human Knowledge: Its Scope And Limits, Allen & Unwin, London, 1954, p.398.

وهذا الاحتمال بدوره، لا يستبعد القضايا الأخرى مسبقا، وإنما يقيسها من حيث درجة انسجامها مع الشروط الواقعية أو عدمه؛ ولذلك فإن المنطق يفترض قِيَما نظرية فقط، لكن الواقع هو الذي يختار ويقرر. لكنك إذا استبعدت الآراء الأخرى مسبقا، فسوف لا يفترض منطقك إلا رأيك، ومن هنا تفقد المقارنة مع الشروط الواقعية جدواها، فيتمسك المرء برأيه واعتقاده بقطع النظر عن انسجامه مع الشروط الواقعية، أو عدم انسجامه. وفي هذا عودة إلى الانغلاق واللاعقلانية بوصفهما بديلا سلبيا للمقارنة الموضوعية.

إن هذا الحل المقترح هنا، ليس حلا نظريا فحسب، وإنما يمكن أن يترجم إلى مستوى النشاط العملي، وهذا الحل العملي غير ممكن، إن لم يسبقه استعداد نفسي. والعقبة أمام وحدة المسلمين أنهم يفتقرون إلى هذا الاستعداد النفسي بسبب الخلل التربوي الذي توارثوه، أجيالا متلاحقة، مما جعل كل مسلم يعتقد بصواب ما هو عليه، وتفاهة ما عليه الآخر وضلاله. فإذا كان الاستعداد النفسي هو السبيل الواقعي إلى الإنجاز العملي للمشروع النظري (أو الحل) الذي يستوعب احتمالات الواقع وإمكاناته، الذي فرضناه بدوره إصلاحا للخلل التربوي، وكان ذلك الاستعداد النفسي مرتبطا بإصلاح الخلل التربوي ـ فمعنى هذا أن الحل النظري يجب أن يكون قادرا على تجهيز الذهن بآليات بعث الاستعداد النفسي من أجل الإنجاز العملي.

ومن هنا يلتقي الاستعداد النفسي مع الحل النظري؛ لأن الفكر هو الذي يتحكم بالواقع، وأي مشروع نظري يستهدف إصلاح الخلل الفكري سوف ينعكس على المستوى النفسي والواقعي، فإذا اقتنعت الأمة بضرورة التغيير، واقتنعت بأن هذا التغيير مرتبط بمنهج فكري، يصلح الخلل الفكري، وتم التزام هذا النهج الفكري، فهو بالتأكيد ستكون له انعكاسات مباشرة على المستوى العملي، وهذا هو المأمول من كل مشروع إصلاحي، يستهدف بث روح الوعي العلمي في المجتمع؛ للخروج به من مأزق التقليد والتعصب، إلى رحابة الواقع النفسي الذي بعث فيه الإسلام ألقا من نوره المحمدي، ومن ثم تشكيل الواقع العملي وفقا للمنظومة القيمية الإسلامية بأوسع مدى، وأكثر شفافية وروحية. وهكذا تستطيع الأمة أن تحقق واقعا عمليا متحركا، قائما على الشفافية الروحية والأبعاد الأخلاقية العميقة بكل ما تحتويه، من تسامح وحب ولطف ورحابة نفس، في حوارها المتنوع مع أطرافها ذاتها، وبين أطرافها المؤمنة هذه، وأطراف المعادلة الغربية.

وفي حال تحقق هذا المشروع، تستعد الأمة لاستقبال الازدهار الثقافي في المجالات كافة، وتأخذ حركة الثقافة طريقها الطبيعي إلى الإبداع والابتكار، وخلق نماذج جديدة لمعالجة المشكلات الراهنة، بصورة تنسجم مع طبيعة الحياة وتغيرها. حينئذ تضيء الثقافة طريق الحل التنموي الشامل، الذي ينقل الأمة إلى المستوى الثاني، مستوى المدنية والرقي الاجتماعي بكل ما يحمله، من مفاهيم عملية، مثل العدل الاجتماعي وحقوق الفرد والجماعة، والقانون والمساواة الشاملة. أما إذا بقيت الأمة تكرر تاريخها، بكل ما فيه من سلبيات، ومن دون وعي علمي بتكوينه ومقاييسه قياسا إلى وضعها الراهن ووضع العالم، مقلدة الطرق الميتة في الحياة، فإن مآلها التلاشي أكثر فأكثر، حتى تذوب في المجتمعات المتقدمة، وتُسْتَرَق إرادتها.

هذا هو الإسلام، أمام الجميع، منظومة قيمية تستجيب لمتطلبات كل عصر، لكن عندما يستوعبها عقل قادر على ترجمتها إلى مشاريع عمل منتجة، وليس إلى شعارات فارغة، كما يفعل بعض المسلمين اليوم، وإلى مجرد جلابيب تغطي مساوئ أغضبت السماء، لم يلتفت إليها أهل العصر لاستغراقهم في نوم عميق.

هذه هي مبادئ الإسلام حاضرة لمن يريد أن يعيها، مهما كان لونه وأصله، فهي منظومة قيمية إلهية، قابلة لأن تشتغل عند من يرمي تشغيلها بصدق لا نفاق معه، غير مرتبطة برجل أو إمام أو فقيه معين، إنها ستبقى أبدا سواء وجد هذا الإمام أو لم يوجد، وجد الفقيه الفلاني أو لم يوجد، فالله أعلم حيث يضع رسالته، وليس لمدعٍ أن ينصب نفسه المُنفِّذ الأمين الأوحد لمشروع السماء.

ذا هو الإسلام مشاريع عمل، وليس مجرد تبريرات لأخطاء الماضي، والتماس معاذير لسلوك السلاطين والملوك والأمراء.

وتتوقف الاستفادة من حركية الفكر العلمي على وعي منهجي، مخطط له وفق استراتيجية الدولة، وهو ليس بالمهمة الهينة، فالمناهج العلمية والتربوية يجب أن توجَّه لتحقيق هذا الهدف. وأستطيع أن أحدده بشكل قريب من الدقة، على صعيد فلسفي، أن المناهج العلمية المقرَّرة للتدريس لا تكفي لجعل الطالب يفكِّر بالمادة العلمية، بل هي مجرد طرق تلقينية منسيّة، أي سرعان ما يتناساها الطالب، عندما يعود إلى حياته اليومية.

المطلوب هو أن يدرَّب الطالب، في أي مستوى كان، ليس على تلقي المادة العلمية فقط، بل أن يدرَّب على التفكير بالمادة العلمية، أن يشعر أن عليه أن يعي ما يتعلمه ويفكر فيه، وبمعنى أكثر تحديدا أن يتفلسف بالمادة العلمية، وأن يعمل على تشغيل المفاهيم التي يتلقاها في الدرس، وهذه درجة متقدمة من التعلُّم تمهّد الطريق للإبداع الذي يعتمد على عملية جعل الفكر العلمي جزءا من الحياة العامة والممارسة اليومية. ومن جهة أخرى تجعل الفكر العلمي جزءا من وعي الفرد، يفكِّر به ومن خلاله في السياقات التي يجد أنها تستدعي ثقافة علمية للوعي بها.

البعد النفسي للتطرف

يمثّل التكوين النفسي السلبي، في رأيي، سببا جوهريا، أو كما يطلق عليه علماء الصحة النفسية، سببا مرسّبا أو أصليا للتطرف والعدوانية. وهو سبب تخلقه البيئة غير المواتية التي يتربى في كنفها الفرد، المدرسة والمجتمع، وكلا هذين المجالين يحملان أيضا حسن نية في التوجيه، لكن يجب أن نعلم أن الأخطاء كثيرا ما يتم تعليمها بحسن نيّة أيضا، يضاف إلى ذلك أن تلك البيئة التربوية بيئة غير واعية، ولا أقصد بغير واعية، أنها لا تحمل ثقافة معينة محددة المعالم، إنما أقصد أنها غير واعية بثقافتها ذاتها، وسوف أتطرق في سياق البحث إلى الفرق بين الثقافة العالِمة والثقافة السلبية.

وأقصد بكون التكوين النفسي السلبي سببا مرسِّبا، أنه نتيجة لمكبوتات متراكمة من الخبرة السيئة التي مارستها على الفرد، قسرية الحياة الاجتماعية بشتى أنواعها الدينية والتاريخية والاقتصادية والسياسية، فتشكلت شخصيته من ذلك التراكم الذي يستبعد العقل تدريجيا، وكلما بعدت جذور ذلك التعليم في

التاريخ، قلَّ الاهتمام بالأسباب والعوامل الموضوعية لنشوئه وتَشَكُّلِهِ، وعُومِلَ بوصفه نصوصا وتعاليماً مقدسة محرَّما الخروج عليها. هكذا ينشأ الفرد وكذلك المجتمع، مقتنعا باللامعقول، ولم يجد في نفسه الاستعداد النفسي الكافي لفحصه وإعادة بنائه، ناهيك عن ارتباط هذا الوضع القائم مهما كان فساده، بمصالح حياتية متنوعة ليس في استعداد الفرد أو الجماعة الاستغناء عنها، بل قد تتحول إلى مبادئ مقدسة، مثل ذلك مبادئ القبيلة وأعرافها، حيث لا يسمح بالخروج عليها، وانتهاكها تحت أي ذريعة أو مناسبة.

إذن تشترك عوامل مختلفة في خلق نفسية الفرد، وتسهم في توجيه جهازه النفسي باتجاه الانسجام مع قوالب ثقافية مختلطة عقيدية وأسطورية حتى خرافية، والأخطر من ذلك أنها تستمر في تشكيل طريقة وعيه بالواقع، وكأنها تضع فوق عينيه غمامة تعميه عن رؤية الأبعاد الأخرى للواقع؛ خوفا من أن تكون متصادمة مع طريقته المعتمدة، ولذلك تراه يرفضها بحزم وبعدوانية، من دون أن يعيها، ومن دون أن يكلف نفسه تقديم أي دليل أو تسويغ لذلك الرفض.

ويصنَّف الإنسان (المتطرِّف والمتحجَّر دينيا) في نظر علماء الصحّة النفسية، ضمن الشخصيات السيكوباثية، وهي شخصيات عنادية تمتلك وعياً جافاً غير قابل للحركة، متزمّتة في آرائها من دون تقديم أدلّة.

والحقيقة أن هؤلاء غير قادرين على وعي حقيقة مواقفهم بالضبط، كما أن الشخصية العصابية لا تستطيع في حالة الهلوسة أن تدرك الفرق بين الواقع الموضوعي، وحقيقة الهلوسات التي تعاني منها. وكذلك الأمر في الخداع النفسي الذي يدرك الواقعة الحقيقية بصورة، هي غير صورتها الموضوعية، فالشخصية العصابية أيضا غير قادرة على إدراك الفارق بين الصورة الحقيقية للواقع، والصورة الخادعة المنقولة عنها. أقول إن المتطرف كالشخص العصابي، لا يستطيع أن يضع أدنى احتمال للرأي الآخر، ليس لأنه يدركه حقيقة ويرفضه علميا، بل لأنه لا يراه أساسا، وليس مستعدا لأن يراه، وإن رآه فلا يصف حقيقته، بل يفسره كما يشاء، وبما ينسجم مع ميوله النفسية، لأن الواقع ملغى هنا، والبديل عنه هو تلك الميول النفسية التي يراها فوق الشبهات بالضرورة، وغير قابلة للنقد والحوار.

والحقيقة أن الصراع النفسي الذي يحمله التطرف، يتحرك بحكم القوانين النفسية نحو التفريغ، فإذا لم يكن المجتمع رادعا لذلك، يتحول التفريغ إلى مذابح مفزعة محطمة للنسيج الاجتماعي واستقراره الأمني. وهذا هو ناقوس الخطر الذي

تحمله تلك الشخصيات، هو مرحلة العدوانية التي يخشى أن تبلغها الشخصية المتطرفة، وهي مرحلة مدمِّرة للذات والآخر، وذلك يعني أن التطرف يرتكس إلى عصاب عدواني. إنّ المجتمع يُسهم في خلق مثل هذه الشخصيات السيكوباثية، وهو مسؤول عن ذلك، بوصفه يضمّ مؤسسات ثقافية حكومية واعية، أو يجب أن تكون كذلك، والنتيجة هي أن الشخصيات المتطرفة (السيكوباثية) هي شخصيات مضلَّلة، وضحايا تخلُّف الواقع، وغياب الوعي الذاتي بثقافته وطريقة تعليمه.

التطرف بين المحيط والوراثة

في إطار فهم السلوك العدواني، لا يمكن أن نغفل المعيش الفردي، والسياق المجتمعي ـ الثقافي اللذين أسهما في صقل (الذات المجتمعية الفاعلة)، على الرغم من أن بعض العلماء يرى أن السلوك العدواني يعود إلى تاريخنا الوراثي، الذي يحكم علينا أن نمارس العدوانية تجاه أنفسنا، ونعتمد على العنف في تصرفاتنا.

وفي السياق الطبيعي لتفسير العنف والعدوانية، يحدثنا كونراد لورنس (Konrad Lorenz) عن (هذا الكم القميء من العدوانية الذي لا يزال متغلغلا، بحكم بعض المعطيات الوراثية العليلة، في أعماق الإنسان المعاصر) أو عن (الغريزة العدوانية الموروثة عن أجدادنا أشباه البشر [الإنثروبويد]، التي لا قِبَلَ لعقلنا بالتحكم بها). ومنذ عام 1956، وخلال عقد من السنين، افترض بعض العلماء أن الصبغي المزدوج[1] y هو (صبغي الجريمة) أو صبغي (الذكور الاستثنائيين المبرمجين جينيا على العنف). وفي عام 1984 طرح أحد أساتذة جامعة اكسفورد جون غلوفر (John Glover) سؤالا صريحا، هل من واجبنا أن نعمل على تعديل (الطبيعة البشرية)، بناء على معطيات الهندسة الوراثية، بغية تخليصها من (أسوء وأخطر ما فيها)؟. وهكذا فإن أسطورة وجود (الوحش في الإنسان) بصيغتها الحديثة، تشدد على أن إرثنا الجيني لا يزال يحتوي على مورثات معينة، هي المسؤولة عما في صلب دماغنا من حيّز مولّد للعدوانية، تنشأ عنه مختلف أنواع العنف[2].

---

(1) من المعلوم أن الرجل يحمل الصبغيين الجنسيين x y في حين تحمل المرأة الصبغيين x x ، أما الشذوذ الذي يعزا إلى صبغي العدوانية والعنف فهو الازدواج x y y الذي يحصل في بعض الحالات حسب افتراض بعض العلماء.

(2) كارلي، بيير، بعض الأسئلة التي يطرحها دماغ الإنسان، في كتاب: الإنسان في مواجهة العلم، تأليف مجموعة من العلماء، ترجمة حسن قبيسي، وعلي حرب، معهد الإنماء العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1999، ص88.

وفي الحقيقة قد يتحول السلوك المكتسب، إلى سلوك موروث بمرور الزمن بسبب التفاعل المستمر بين المحيط، وآليات الدماغ التي ترتبط بدورها بالغدد الهرمونية، المسؤولة عن زيادة ونقص الهرمونات الستيروئيدية، فالجواب السلوكي على مؤثر خارجي يعمل على تحرير الهرمونات المذكورة، وعلى عملها، وتعتمد طبيعة التأثير على نوع المثيرات، فالإحساس الفردي الذي ينفر من التهديد، أو من الإحباط (الذي قد تكون استجابته من طبيعة عدائية) يتفاقم، ويزداد حدة كلما كان معدل التستوستيرون البلازمي (الهرمون الجنسي لدى الذكور) أشد ارتفاعا. وبالمقابل فإن الوضع المأزوم، وانتهاء تأزمه يؤثر على هذا المعدل البلازمي في المنشطات الذكورية، بحيث ينخفض المعدل عند المنهزم، بينما يظل على حاله عند المنتصر، أما الهرمونات الستيروئيدية التي تحررها قشرة الكظر، فتفعل فعلها التكييفي في الإدراك السياقي العام لوضع من الأوضاع، وفي الاعتماد على الاستجابة السلوكية المتلائمة معه في آن واحد.

هذا التفاعل المتبادل، وغيره مما سوف نذكره، يعدل من الآليات الدماغية والهرمونية؛ لتفعل فعلها في التركيب البيولوجي الجزيئي للإنسان، فيعدل أو يغير تدريجيا في تركيبه الجيني في خلاياه الجسدية. وهذا ما يدفعنا إلى القول بوجود تزاوج بين التاريخ الثقافي، والتركيب الطبيعي للإنسان في إنتاج شخصيته، فالتاريخ والمحيط والوراثة تمثل تركيبة معقدة، يمكن أن تنتج إنسانا سويا أو منحرفا.

ويجب أن نميز في السلوك العدواني بين الوسيلة والغاية، فما أن تستخدم وسيلة لفعل، حتى يجوز لنا القول إن غاية الفعل، أي السبب الأولي للفعل العدواني، يكمن في نتائجه التي ينتظرها الذهن بعد التنفيذ، واستنادا إلى ذلك فإننا لا نفسر شيئا، إذا عزونا كل ضروب العدوان، وكل أنواع العنف إلى (عدوانية) داخلية كامنة فينا، باعتبارها كيانا طبيعيا وواقعا سببيا. ولم تستطع الفيزيولوجيا العصبية حتى الآن، أن تعين أي مركز أو نظام من العصيبات، من شأنه أن يعتبر بمثابة (المولّد) لمثل هذه العدوانية المذكورة، التي يفترض بها أن تكون ضربا من الطاقة المخصوصة، أو من القوة الحركية الداخلية الكامنة في أصل كل أعمالنا العدوانية.

والواقع أن اللجوء إلى الفعل العدواني عند الإنسان، ينجم عن مواجهة شخصية معينة (كانت قد نمت وتطورت في ثنايا سياق عائلي أو مجتمعي ـ ثقافي معين) لوضع معين (يستمد كل دلالته ومعناه من مرجعية القيم والتطلعات والنماذج والأساطير

المرعية في ذلك السياق المجتمعي ـ الثقافي بالذات). ثم إن ما يستحق التحليل في مثل هذه المواجهة هو العوامل ـ المتعددة والمتنوعة ـ التي تسهم في تحديد[1]:

- ❖ الطريقة التي يتم بموجبها إدراك الوضع وتأويله وعيشه.
- ❖ نوعية وشدة الانفعال الذي أثاره هذا الوضع.
- ❖ بلورة توقع ما أو هدف ما.
- ❖ اختيار الاستراتيجية السلوكية التي تبدو متلائمة معه.

يتضح من ذلك أن الفيزيولوجيا العصبية لا يمكن أن تسهم في هذه الدراسة، إلا إذا كانت هناك عوامل مشتركة بين الحيوان والإنسان. ويعتقد بيير كارلي أن هناك مثل هذه العوامل المشتركة، فهو يرى أن (سمات الشخصية) التالية عند الحيوان ـ كما عند الإنسان ـ تسهّل، أو لا تسهل عملية اللجوء إلى استراتيجية عدوانية، مثل هذه السمات هي: مستوى رد الفعل الانفعالي، وحساسية المزاج من حيث نفوره من التهديد والتحدي والإحباط، ودرجة النزق والرعونة، ووجود الروابط بين الأفراد ونوعيتها، ووقع الاختبارات المبكرة ووطأتها.

وأظهرت الأبحاث التي جرت في مجال الفيزيولوجيا العصبية نوعين من الأمور: الأول مجموعة من الصلات القائمة بين المجريات السلوكية التي تسهم في تكوين سلوك عدواني معين، وبعض الآليات الدماغية المحددة على نحو دقيق. ثم يعتقد كارلي أننا، إذا عالجنا اختباريا هذه أو تلك من آليات الدماغ، فإننا نستطيع ـ بصورة قابلة للرصد وقابلة للإعادة ـ تعديل احتمال وضع السلوك المعني موضع التنفيذ. وبالتالي لم يعد هناك شك في أن المنوعات الفردية من الوظائف الدماغية تتحكم، إلى حد معين ـ باستخدام الفرد ـ أو عدم استخدامه ـ لاستراتيجية عدوانية، عندما يجد نفسه في مواجهة وضع معين. ويرى كارلي أننا إذا أعدنا وضع الصلات التي تبينت لنا ضمن الإطار الطبيعي الذي هو إطارها، أي إطار التاريخ المشترك بين الدماغ والسلوك، فإن الأبحاث تبين لنا، من جهة أخرى، أن المحددات السلوكية لا تجري أبدا باتجاه واحد.

ويسهم المحيط في خلق حالة الاكتئاب والعدوانية في الإنسان، كما يسهم في خلق حالة التطرف التي قد تنتهي إلى هذه السلوكات العدوانية. فقد أثبتت

(1) المصدر نفسه، 89.

الفيزيولوجيا العصبية، أنه إذا منعنا الحيوان من القيام بأفعال تمكنه من مزاولة رقابة فعالة على علاقاته بمحيطه، فلابد أن تنمو لديه (حالة اكتئاب) فعلية مصحوبة بتغيرات ذات طبيعة عصبية ـ كيميائية داخل الدماغ. وهذا ما يثبت لنا مدى الأثر الذي يولده ضغط المحيط الثقافي، والسياسي على السلوك الفردي، ومدى إسهام الاستبداد، وكبت الحريات في خلق الشخصية العصابية المتطرفة في آرائها ومواقفها السلبية، هكذا يسهم التاريخ والمجتمع في إنتاج التطرف، والنزعة العدوانية تجاه الذات والآخر.

وتقوم الأنظمة التي تحرر (المورفينات الداخلية المنشأ) في الدماغ، بدور مهم في تنمية التفاعلات المجتمعية. فهذه الأنظمة تتدخل في بلورة الروابط المجتمعية، والحالة العاطفية التي تنجم عن الارتياح المجتمعي، وبالمقابل فإن التفاعلات المجتمعية تترك أثرها على نضج الأنظمة الدماغية ووظائفها[1].

إن الحوار بين المرء ومجتمعه هو الذي يكيف نضج الدماغ، ومن ثم نضج الطريقة التي يعتمدها المرء لإدراك، وتأويل وعيش الأوضاع العينية التي تطرأ عليه، فمن المسلم به لدى علماء النفس أن المحيط الأبوي يسهم منذ فترة مبكرة، في تطوير الولد الصغير السن، حيال العالم والآخرين، وفي دفع نموه باتجاه وضع منفتح حميم واثق، أو وضعه ـ بالعكس ـ باتجاه وضع حذر عدائي، ثم إن السياق المجتمعي ـ الثقافي هو الذي يتكفل بعد ذلك، بتوفير المعايير والأطر المرجعية التي تستبطن تدريجيا لتتحكم حيال وضع جديد من الأوضاع، سواء بتكوين نوع من التوقع أو باختيار الاستراتيجية السلوكية الآيلة إلى تحصيل النتائج التي تستجيب للوضع المذكور.

وهكذا نشدد، مرة أخرى ومن منطلق نفسي، على أننا بحاجة إلى إعادة نظر، ليس في مناهجنا التربوية، بل في تاريخنا الثقافي؛ لرصد، ومن منطلق سيكولوجي، العوامل السلبية التي يمكن أن تفعل فعلها في تكييف بيئة نفسية غير صالحة للمرء، بيئة ثقافية سالبة تدمر الشخصية، وتخلق منها وعاء جامعا لكل سلبيات التاريخ الآيديولوجي، التي من المحتمل بدرجة كبيرة، أن تفتت البنية المتماسكة للثقافة الإسلامية الحقيقية المنسجمة مع حركية الواقع وتطوره.

(1) المصدر نفسه، 89.

الثقافة السالبة والثقافة العالِمة

وتقتضي المناسبة هنا، التمييز بين الثقافة السلبية والثقافة العالِمة؛ لكي لا يُساء موقف الإنسان المتدين الإيجابي. الثقافة السلبية هي ثقافة تفتقر إلى الوعي بالذات، ولذلك فهي غالبا ما تكون ثقافة تعليمية وليست استنتاجية، أعني تم تلقيها من قبل الآخرين (البيئة أو التاريخ)، أو المؤسسات المروِّجة لذلك، بأسلوب تربوي وتعليمي، لا يتضمن الكشف عن الآليات العقلية لها، بل تحرص على تغييب الجانب العقلاني؛ لكي تتستر من عجزها عن تقديم البراهين المنطقية، التي تكشف عن وعي واقعي بالموضوع، أو هو نفسه لا يمتلك الأساس المنطقي والواقعي لذلك، وبالتالي فهو أسلوب تبريري؛ ولذلك فإن التعليمات الملقَّنة بهذا الأسلوب لا يمكن أن تعبِّر عن الثقافة بمعناها الدقيق، وقد تطلق عليها (ثقافة) تجوزاً، وأحرص على إضافة صفة السلبية إليها، علما أن المعنى اللغوي والاصطلاحي للثقافة، لا ينطبق على هذا اللون من التعليمات أو التعليم، والأكثر دقة هو أنها تتضارب مع المعنى الدقيق للثقافة. لكننا مع ذلك، وفي هذا البحث بالذات، أكتفي بإطلاق تسمية الثقافة السلبية عليها.

وللثقافة السلبية (التطرف الديني تحديداً) صفات ومعالم، منها أنها ليست حوارية، وإنما هي انفعالية، وغالبا ما يبدي الأشخاص (المصابون) بها أعراضا انفعالية وعدوانية، وقناعات هلوسية ووهمية لا واقع لها، وقد تمتد هذه الهلوسات والأوهام إلى إنكار البديهيات وتشويهها، والرفض المطلق لكل ما لا ينسجم مع التكوين النفسي لها، وإن استدعى ذلك تفسير الواقع، المعطى بالإدراك الحسي الواضح واليقيني، بطريقة تشكّك فيه، وتستنكر البديهي والواضح منه.

إن الإنسان المتطرِّف لا يعي أسباب تطرفه؛ لأن تلك الأسباب لاشعورية، أي تراكمات مكبوتة كما ذكرنا قبل قليل، ولذلك يتعامل معها كتحصيل حاصل، أو بداهات، وغالبا ما تكون الآراء التي يتطرف لصالحها هي أفكار ترتبط بمصالح معينة، تخص فئة محددة في التاريخ، وقد نجحت تلك الفئة في عولمتها ومنحها طابعا شموليا وأصوليا بانتزاع مسوغات نصية لها، ولو كانت تلك المصالح الشخصية أو الفئوية واضحة ومفضوحة في وقتها، فإن تاريخ المنتصر استطاع أن يلتمس لها أسبابا مقبولة من المجتمع. وبشكل عام كلما تقدم التاريخ، تمَّ تناسي

العوامل والدوافع الحقيقية وراء تلك الأفكار، فتصل إلى رعاع الناس جاهزة، فتجد لها حيزا مناسبا في عقولهم البسيطة.

من هنا نعرف، على مستوى نفسي، لماذا يستقتل بعض الناس في الدفاع عن أفكار وآراء من دون أن يعلم بأسباب نشوئها وأصولها، ومن دون أن يكون بإمكانه تقديم أي دليل أو حجة تسندها، بل من هنا نعرف أيضا لماذا لا يتمكن مثل هؤلاء الأفراد، من الاستماع إلى الرأي الآخر؟. إن الأفكار الموروثة، لاسيما إذا تأطرت بإطار ديني أو طائفي، تمارس سلطة قمعية على عقل الإنسان غير الواعي(البسيط)، فتفسد ملكات السمع والبصر والوعي لديه، وهذا هو المسلك الذي حذر القرآن منه بقوله:
﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (سورة الأعراف/179) فلم يرد القرآن لأتباعه الموحدين هذا المسلك ولم يحببه لهم،بل جعل من صوت العقل والحجة دليلا على قوة الروح وسلامة الإيمان والدين.

وأذكّر بالخلل التربوي الذي تحدثنا عنه سابقا، ذلك الخلل الذي نشأ من التاريخ السياسي للعالم الإسلامي الذي شطر المجتمع الإسلامي إلى فرق متصارعة، اتخذت بمرور الزمن طابعا آيديولوجيا مؤثراً على شرائح مختلفة من هذا المجتمع، فأنتج أفرادا مختلفين في اتجاهاتهم ونواياهم، حتى لم يعد الإسلام في نظرهم هو الهدف من سعيهم في الحياة، بقدر ما أصبحت الدعوة موجهة لغرض نشر المذهب والدفاع عنه، وإن كلّف الأمر ضرب وحدة الأمة وكسر شوكتها، وإضعاف قدرتها على البناء الذاتي، ودرء الخطر الخارجي المحدق بها، ولا يخفى على لبيب أن ما تعانيه الأمة العربية، والإسلامية من ضياع هو نتيجة التمزق الداخلي الذي نخر عظامها، و فتّ في عضدها على مدى قرون متتالية.

المظهر الآخر للثقافة السلبية هو التخلف، ذلك لأن التطرف هو دعوة لاختصار الإسلام في دائرة ضيقة، تعبر عن رؤية فئة أو طبقة، وهي رؤية ارتبطت بالجانب الانفعالي والعدواني الذي تحدثنا عن منشئه قبل قليل، وقد استغلت بعض تلك الاتجاهات المتطرفة عواطف البسطاء من المسلمين الذين لا يحملون ثقافة محصّنة من الاختراق، وأسهم التاريخ الوهمي في تعزيز هذا الإغواء، والغريب أنه قد استخدمت الأموال في كسب ولاء البسطاء، ليتم ارتهان مصير الأمة بذلك المصدر الشيطاني (البرميل والدولار)، فسقط العديد بتأثير تلك الوسائل التي وجهت من الخارج لضرب وحدة الأمة، وتكفير المسلمين بعضهم لبعض، وتكفير الشعب الواحد بعضه لبعض، وخلق صراع داخلي، ما من شك يحظى بمباركة الدول الاستعمارية.

إذن على الأمة الناهضة أن تنتشل نفسها من مرحلة عبودية التاريخ، أو الموروث لتتحول مختارة إلى الوعي الذاتي، الوعي بالموروث، أو ما أسميه الدعوة إلى الثقافة العالِمة، فإذا تحقق الشرط، وهو الثقافة العالِمة، تحقق المشروط، وهو الحركة الثقافية وقابليتها للتطور، وهذه الحركة كفيلة بالقضاء على الآراء الدينية المتحجرة والطائفية المتزمّتة، والمواقف العمياء، أي كفيلة بعلاج الشخصية السيكوباثية بالقضاء على عقدها اللاشعورية.

البعد الفلسفي للثقافة العالِمة

كان هذا التطرف ولا يزال، يشكل وبالاً على الأمة، فلا يكفي أن يكون الإنسان واثقا من صحة ما يعتقده ويؤمن به؛ لكي يهاجم الآخرين ويسفّه آراءهم ويشتمهم، فالاعتقاد بشيء لا يشكل دليلا على صدقه وواقعيته، فقد يعتقد الفصامي بأشياء هلوسية، يراها ويتحدث عنها ويلمسها ويخبرنا بثقة عن أشكالها وألوانها، لكن هذه الأشياء أو الكائنات الميتافيزيقية، في الحقيقة، لا واقع لها إلا في ذهنه المضطرب، الذي بلغ في اضطرابه العقلي درجة الانفصال عن الواقع. وفي هذا المقام أشدد على البعد الفلسفي للموضوع، مما يجب أن يتمتع به كل شاب مثقف أيا كان دينه ومذهبه واتجاهه السياسي، وهو أن شروط المعرفة العقلانية لا تتحقق لمجرد الاعتقاد والإيمان، فالإيمان خارج دائرة العقل العلمي والتفكير المنطقي البرهاني، شيء يشبه الجنون، إن لم يكن هو الجنون بعينه.

ومن الناحية الفلسفية نقول لكي تكون لديك معرفة بشيء ما، يجب أن تكون لديك قضية صادقة، وهذا هو الشرط الأول، وثانيا يجب أن يضاف إلى ذلك عنصر الاعتقاد، وهو أن تعتقد أن قضيتك صادقة، ولا يكفي هذا أيضا، فالشرط الثالث للمعرفة العقلانية هو أن يكون لديك دليل على صدق اعتقادك هذا. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، فما هي طبيعة هذا الدليل؟ وهنا ندخل إلى المجال الفلسفي الذي يبحث بطبيعة الأدلة، أو الحجج المقدمة لإثبات صدق ادعاء ما، فالادعاء أو الاعتقاد بلا دليل قرين الجنون والفصام، والدليل من دون تمحيص يجانب روح التحقيق العلمي.

ولا نريد أن نتوسع في إيراد فلسفة الدليل العلمي، ومنطق الجدل والبرهان، ولكن نريد من ذلك أن نلفت الانتباه على أن العناية بفلسفة الدليل تفتح المجال واسعا لتقبل الرأي الآخر، ودراسة حججه وأدلته بروح موضوعية مجردة عن الأهواء

والميول الذاتية. وهنا نكون قد دخلنا باب الثقافة العالِمة التي لا تنفي، أو تنكر دليلا أو حجة لصالح دليل أو حجة أخرى، بل ترجح وتحتمل صدق دليل على آخر، لاعتبارات علمية وضمن معايير، متفق عليها وفقا لبديهيات العقل، وقد عبَّر الإمام الشافعي رحمه الله عن شيء من هذا المعنى، عندما اعتبر رأيه صوابا يحتمل الخطأ، ورأي غيره خطأً يحتمل الصواب.

وقد رأينا أن الثقافة السلبية لا تستخدم فلسفة الاحتمال والترجيح المتعلق بالدليل والحجج، بل تستخدم أسلوب الإنكار والرفض القطعي والعدواني لكل أشكال الاعتقادات، بشكلها الإجمالي من دون النظر بدليل أو حجة مقدمة، وهذا هو عين العماء الذهني والبلادة الفكرية.

أعود إلى مفهوم الثقافة العالِمة، لأزيدها وضوحا. الثقافة العالِمة تخلق روح التمرُّد لدى الإنسان، التمرُّد على سجن التاريخ والمجتمع، وسجن الذات أيضا. حالة الوعي هي الخاصية التي منحت الإنسان تفوقا على سائر المخلوقات الطبيعية، كل المخلوقات عمياء، تقودها قوانين الطبيعة وظروف الحياة، بصورة جبرية من دون إرادة ولا اختيار لها، فيما تصير وتتحول إليه، إلا الإنسان فهو المخلوق الوحيد الذي استطاع كسر جبرية الطبيعة، وعكس شكل العلاقة بين القوانين الطبيعية والكائنات الأخرى، عندما تعلق الأمر بذاته؛ ذلك أنه قد أخضع الطبيعة إلى جبريته وإرادته، إلى وعيه فشكَّلها بالصورة التي يريد ويرغب. وبهذا الأسلوب حرّر نفسه من جبرية الطبيعة.

ومن جهة أخرى، فإن الوعي بحركة التاريخ ومراحل سيره الجبرية يخلق حالة التجاوز والتقدم إلى الأمام، وفي حالة غياب هذا الوعي ينكفئ الإنسان منعزلا عن مسرح الحياة المتحركة، في زاوية جبرية من زوايا التاريخ، وهذا هو قرين العدم. ومن المستحيل الاستفادة من مرحلة تاريخية أو تفعيل فكرة تاريخية، من دون أن يصحب ذلك، وفي الوقت نفسه، تجاوزها، ففي هذا التجاوز فقط نكون قد فعّلنا هذه الفكرة في مسرح الحياة النابضة، وذلك لا يتحقق إن لم يسبقه وعي موضوعي بمراحل التاريخ وأفكاره، وبمنهجية تسمح للمسار المنطقي للأفكار أن ينتهي إلى نتائجه الضرورية من دون تحايل وخداع.

وحركة البحث العلمي ليست كسباق (الماراثون) يتحرك فيه اللاعبون نحو هدف مخطط له سلفا، والبطل هو من يصل قبل غيره، كلا إن النتائج في البحث العلمي، لا ترسم سلفا، ثم يتحرك الباحث حركة خادعة نحو النتيجة، فمثل هذا

المنهج عقيم، وهو ليس إلا خدعة، للذات وللآخرين، وإنما هي تجرد من الموروث وحياد تام تجاه الحقيقة، لتحقيق وعي موضوعي بها، وبالواقع الراهن للإنسان العالِم؛ ليخرج من سجنه الاجتماعي والتاريخي، ومن عبوديته التاريخية، عبودية الشخصيات التي ثبتها في ذهنه الصراع التاريخي الدموي الذي مرت به الأمة، ولا تستطيع إلى الآن أن تنتشل نفسها منه، لأن هناك من يعمل على بقاء، وديمومة حالة الغفلة هذه، والإصرار على تبرير كل وقائع الماضي من دون تمييز، بذلك الوعي العلمي يتم الخروج من جبرية المجتمع وقوالبه الفكرية.

إن الإنسان الواعي بذاته، وبمجتمعه يستطيع أن يتخلص من حالته الصمّاء التي نشأ عليها في المجتمع، بماذا يتخلص؟، بالوعي بمجتمعه، بإدراكه للعلاقات الاجتماعية والمراحل الجبرية للمجتمع، عندئذ فقط يتحرر من سلطة المجتمع السلبية، فلا يؤثر المجتمع في بنائه، بل هو الذي سيوجه المجتمع ويبنيه بالطريقة التي يريد، والتي يرى أنها أكثر صحة، وقوة في هذه المرحلة التاريخية.

بهذه التجاوزات المتقدمة تكمن قيمة الإنسان وأصالته الإلهية، ولم تكن تلك التجاوزات نتيجة ضرورية للفلسفات الغربية وعلم أوربا. كلا أبدا، إنها نتيجة حتمية للوعي الإسلامي الصحيح. والحقيقة أن ما تؤدي إليه الفلسفات الغربية بطريقة منطقية تنسجم مع مقدماتها، هو الجبرية الطبيعية، أو الجبرية الاجتماعية، أو الجبرية التاريخية، أو الجبرية الاقتصادية أو الجغرافية أو الجنسية. هذه هي مذاهب الفكر الغربي، وكلها لا تقدم آلية لانتشال الإنسان من وضعه المحزن، ومسؤوليته الوجودية هي مسؤولية معلقة في الهواء، لم ترتكز على قاعدة متينة.

كل تلك الفلسفات انتزعت من الإنسان بعده الإلهي، وساوته بالكتل المادية المحكومة، إما بقوانين الطبيعة، أو بقوانين المجتمع أو بالغرائز، أو بوسائل الإنتاج ..الخ. وكل تلك النظريات لا تمتلك مسوّغا لجعل الإنسان يتجاوز جبرية الطبيعة أو التاريخ أو المجتمع، إنه دوما نتاجا لها وألعوبة بأيديها، ووفقا لهذا الأسلوب فسوف يكون التاريخ مجرد تكرار، الحاضر تكرارا للماضي، والمستقبل تكرارا للحاضر، ولما كان الحاضر هو تكرار للماضي نفسه ، فالحقيقة هي أنه لا يوجد مستقبل، لأنه لا يوجد تطلع نحو المستقبل.

وتعالوا الآن إلى القرآن الكريم، الذي عيّن مرحلتين في خلق الإنسان، المرحلة الطينية، ثم مرحلة النفخ وما بعدها، وهي الخلق الآخر ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾

(المؤمنون/14)، بهذه الخلق الآخر (النشأة الإلهية) تميز الإنسان من سائر المخلوقات، وبه كان خليفة الله على أرضه، وبه أيضا يتجاوز جبرية الطبيعة، وجبرية التاريخ وجبرية المجتمع، ويرسم له علاقة خاصة بتلك المراحل، والعوامل، تجعل تلك العوامل الطبيعية والتاريخية والاجتماعية خاضعة لوعي الإنسان وإرادته واختياره، وهذا هو المنشأ الفلسفي الدقيق للمسؤولية.

ولذلك فإن تلك المدارس، سواء منها التي رهنت الإنسان بقوانين الطبيعة (المدرسة الطبيعية)، أو التي رهنته بقوانين التاريخ الجبرية (المدرسة التاريخية)، أو التي رهنت مصيره بالاقتصاد ووسائل الإنتاج (المدرسة الماركسية)، أو التي رهنت مصيره بالغريزة (المدرسة السيكولوجية) أو بجبرية المجتمع (المدرسة الاجتماعية)، أقول كل تلك المدارس نظرت إلى الإنسان بوصفه مساويا لمرحلته الطينية، أي الإنسان المادي فحسب، ملغية النظر إلى بعده الأصيل الذي لم يخرج من رحم الطبيعة كما خرج جسمه، وإنما خرج من النفخة الإلهية، كما يؤكد النص القرآني.

وقد رأينا أن القرآن الكريم في الوقت الذي لم يغفل الجانب الطبيعي للإنسان، ذلك الذي خرج من رحم الطبيعة من طينها الباطن، شدّد على أن البعد الأصيل الذي يمنح الإنسان كرامة عليا ووجودا متعاليا، يخرجه من عبودية الطبيعة والتاريخ والمجتمع، ويدفع به في سلم التكامل التاريخي، هو ذلك الخلق الآخر.